التصدير

يرى بعض العلماء أن الجغرافيا من أصعب العلوم مراماً وتدريساً إن لم تكن أصعبها جميعاً .

ومصدر صعوبتها ، اعتمادها على علوم كثيرة ، مختلفة . تخصص كل منها فى دراسة موضوع خاص ، يفحص عنه فحصاً دقيقاً .

فهى تعتمد على علم الفلك فى معرفة شىء ، ولو ضئيل ، عن الأجرام السماوية كواكبها وأقمارها ونجومها ، وبخاصة الأرض والشمس والقمر .

وتعتمد على علم الجيلوچيا فى معرفة نتائج الأحداث التى انتابت سطح الأرض من التواء وانكسار ، وتشقق ، وتغضن ، وارتفاع ، وانخفاض ، وتآكل وتفتت ، وهدم وبناء ، إلى آخر ما يفحص عنه علم الجيلوچيا .

وتعتمد على علم الطبيعة فى دراسة الحرارة ، والهواء وتصريف الرياح ، والأمطار بما ينفع الناس .

وعلى علم النبات فى الوقوف على تأثر نبات الأرض بالتربة والمناخ ، وأثره فى توزيع الحيوان وحياة الإنسان .

كما تعتمد على علم الحيوان ، وعلم الكيمياء ، وعلم المساحة ، وعلم الاقتصاد ، وعلم التاريخ ، وعلم الاجتماع ، وعلم الأنساب ، وعلم الآثار وعلى علوم عدة أخرى فى الإحاطة ببعض ما يفحص عنه كل من هذه العلوم .

ولهذا وصفها بعض العلماء بأنها جماع العلوم كلها ، تأخذ من كل منها بطرف ، وتتوصل به إلى دراسة تأثير بعضها فى بعضها الآخر ، وتأثيرها كلها فى الإنسان ، وتأثير الإنسان بدوره آخر الأمر فيها كلها .

وفى ذلك تشبيهات كثيرة :

فقد شبهها بعضهم بالنحلة الدءوب التى تجمع رحيق أزهار كثيرة ، مختلفة أنواعها ، فتمثله وتخرجه شراباً حلواً سائغاً ، فيه غذاء للناس ومتعة .

وشبهها بعضهم بالحائك الماهر ، الذى يأخذ خيوطاً مختلفة ألوانها ، فلا يزال يقارب بين بعضها ويخالف بين بعضها الآخر حتى يصنع منها منسوجاً فى بعضه الاختلاف ، وفى بعضه التوافق . وفيه كله الانسجام البديع .

وشبهها بعضهم بالموسيقار الموهوب يخلق من الأصوات المتنافرة لحناً موسيقياً عذباً متسق الأنغام .

وليست الجغرافيا التى وصفتُ ، وعرّفتُ وضربت لها الأمثال ، هى الجغرافيا التى يدرسها التلاميذ فى فصولهم ويعرفها جمهرة الناس ، وإنما هى جغرافيا من نوع آخر تقرأها مُيَسَّرَة مهذبة فى هذا الكتيب فتطيل امتاعك ، وتعمر قلبك ، وتبسط لسانك . ولو قرأها القس الفرنسى الذى سنقص عليك قصته لاكتفى بها ، ومحا اسم الحبشة من ثبت أسماء الأقطار التى خار الله له فى زيارتها .

ومجمل قصة القس ما يأتى :

زعموا أن بعض الرحالين عثروا عليه بجوب أنحاء كليفورنيا ، فسألوه عما حداه إلى القدوم إلى هذا البلد النائى ، يضرب فى أوعاره ، فى سن تقعد بكثير فى دورهم لا يبرحونها ! .

فقال لهم ، وهو يحاورهم : إنى رأيت فيما يرى النائم أن الأجل وافانى . فدعيت إلى لقاء ربى . فلما مثلت بين يديه ابتدرنى بالسؤال عن رأيى فى أرضه .

ولما لم أكن أتوقع أن أسأل هذا السؤال ، عييت عن رد جوابه ، وعلتنى حمرة الخجل لجهلى بأقطار الأرض لأننى لم أكن قد غادرت مسقط رأسى ، ومقر عملى أبداً !

ولم ألبث أن وجدت نفسى راكعاً أطلب رحمة ربى وغفرانه هذا الذنب العظيم .

واستيقظت من نومى غير مصدق أنى لا أزال حياً ، ولما تأكدت أن ما رأيته لم يكن إلا حُلماً ، آليت على نفسى أننى أقضى بقية عمرى فى السير فى الأرض ، والمشى فى مناكبها لمشاهدة معالمها ، واجتلاء محاسنها ، ومعرفة أممها وتبين آمالهم وآلامهم ، ودوافعهم وأهدافهم ، فأحكم لهم أو عليهم عن علم . وأصدر إن سئلت عنهم ، عن تمييز .

المؤلف